حسب كلود برنار لا وجود للفرق بين الملاحظة والتجربة في الطبيعة، كون التجربة ناتجة من ضبط الملاحظة، وتحكم الباحث في تعديل شروط الظاهرة قيد التجربة.

على أن هناك تجارب يسميها كلود برنار (تجارب للرؤية) تحاربا يقوم بها العالم في الميادين التي لا يسمح له الموقف العلمي بالتجريب والتمحيص، وذلك الانعدام الفروض سواء لعدم تقدم الناحية المخبرية او لحداثة الدراسة .وهذا النوع من التجارب شبيه بالمرحلة التي تسمى عادة في مناهج العلوم الإنسانية بالدراسات الكشفية .ان العالم في (تجارب للرؤية) يقوم بمحاولة جس النبض أو كما يقول برنار " :بالاصطياد في الماء العكر ."ان هذا النوع من التجارب ضروري على ما يبدو في علم التدريس، حيث لم تبلغ فيه سيطرة الإنسان المرتبة التي بلغتها في العلوم الطبيعية وحيث لا يتفق العلماء، لحد الآن، على نظريات شاملة .فالعالم يقترح فقط ملاحظة سلوك الفرد في استجاباته لبعض المواقف التي يصطنعها، دون أن تكون لديه بالضرورة فروضا واضحة يريد تمحيصها .وفي هذه الحالة فإن الاختلاف الذي يمكن تسجيله بين الملاحظة والتجربة هو اختلاف في الدرجة فحسب.

3-أنواع الملاحظة:

عادة ما يميز العلماء بين أنواع كثيرة من الملاحظة وبصفة خاصة بين الملاحظة العرضية (غير المقصودة) ، والملاحظة المنظمة.

3-1-الملاحظة العرضية:

لا تخضع إلى قاعدة، ولا تهدف إلى الكشف عن حقيقة علمية محددة .وهي تدخل في نطاق المعرفة الحسية والتي تنحصر في بعض المواقف العملية المحدودة .كتلك التي يقوم بها أي عالم في حياته اليومية كأن يلاحظ مثال نفسه أو الآخرين أو يلاحظ الأشياء أثناء ممارسته لنشاطه العملي أو المهني.

على أن هذه الملاحظة قد تتحول في بعض الأحيان إلى ملاحظة مقصودة، فيصل الباحث عن طريقها إلى تقرير حقائق علمية على جانب كبير من الأهمية وقد تتحقق بالصدفة وعن غير عمد، ذلك أن الباحث يكون بصدد ملاحظة ظاهرة ما أو يسعى إلى تقرير حقيقة فيكتشف حقيقة أخرى .كما حدث مثال" بافلوف "عند اكتشافه للفعل المنعكس الشرطي، أثناء تجاربه حول فسيولوجية الهضم، وبملاحظاته لسيلان لعاب الكلب.

2-3-الملاحظة المنظمة:

تدخل الملاحظة المنظمة في نطاق مشروع محدد المعالم، يحصر مجال الدراسة .ويمكن أن تسمى بسيطة أو طبيعية، إذا ركزت على مراقبة الظاهرة ميدانيا وفي ظروفها العادية مثل مراقبة سلوك الفرد في حياته اليومية أي ملاحظته كما يحدث تلقائيا في ظروفه الطبيعية دون اخضاعه لضبط علمي صارم وبغير استخدام أدوات دقيقة للقياس .ففي علم النفس الارتقائي مثال يقوم الباحث بملاحظة ألعاب الطفل في فترات مختلفة ليتبين ما يعتري هذه الألعاب من تغيرات .ويستعمل علم النفس الصناعي وكذا علم النفس الاجتماعي أساسا هذا النوع من الملاحظة، ملاحظة سلوك البناء أو سلوك العمال تجاه الآلات...

وقد يتخذ الملاحظ في بعض الأحيان موقفا يلاحظ منه دون أن يكون ملاحظا .كما يلجأ في أحيان أخرى إلى الانغماس في حياة الناس بهدف تقليص ما أمكن(المسافة الاجتماعية) أو الشقة بين الباحث وموضوع بحثه في محاولة منه لمراقبة سلوكه في إطار نشاطه اليومي المهني أو الأسري ...وفي ظروف طبيعية .وفي هذه الحالة تسمى الملاحظة" الملاحظة بالمشاركة "ذلك أنها تتضمن اشتراك الباحث في حياة الأفراد الذين يقوم بملاحظتهم.

ومساهمته أوجه النشاط التي يزاولونها لفترة مؤقتة وهي فترة الملاحظة، ويستلزم هذا النوع من الملاحظة أن يصبح الباحث عضوا في الجماعة التي يقوم بدراستها وأن يساير الجماعة ويتجاوب معها ما أمكن ليظل السلوك تلقائيا بعيدا عن التصنع.

كما يمكن أن تسمى الملاحظة الاكلينيكية، وفي هذه الحالة فإن ظروف البيئة تكون محددة من طرف الباحث .ان المقابلة الإكلينيكية كما تمارس في بعض العيادات هي ملاحظة من هذا النوع إذ لها قواعدها وأهدافها حتى عندما تكون المقابلة غير محددة وغير موجهة وقد يوضع المفحوصون في مكان معين يسهل ملاحظة سلوكهم، بعلم منهم أم لا وقد تحد المهام التي يكون عليهم إنجازها، وفي هذه الحالة نقترب كثيرا من شروط التجريب.

3-3-الملاحظة الذاتية:

تتعدد مشاكل الملاحظة الذاتية وتتشعب .وكثيرا ما يلجأ الباحث في مجال العلوم الإنسانية في دراسته للشخصية مثال إلى فحص وملاحظة الوثائق التي وضعها المفحوص بنفسه مثل الوسائل، أو السيرة الذاتية أو الإنشاءات...إلخ .على أن الملاحظة الذاتية كثيرا ما تعني، وخاصة في البحوث المنهجية المنظمة، اللجوء إلى ملء الاستمارات المعدة من طرف الباحث .وفي هذه الحالة فإننا لا نلاحظ سلوك المفحوص بكيفية مباشرة بل نعتمد على خبرته وتجربته الشخصية وملاحظاته الذاتية وما سيحيكه لنا عنها في المقابلة أو الاستمارة .فتكون إجابته مثال على السؤال" :هل تتضايق من مراقبة والديك "تعويضا على ملاحظات ممكنة ولكن من الصعب إجراؤها .وهكذا فالحقائق التي قد يقدمها المفحوص في جوابه عن هذا السؤال مبنية أساسا على ملاحظات متعددة.

ان للاستمارة أهمية قصوى في مجال الدراسات الإنسانية، فبالإضافة على كونها تمكننا من تعويض الملاحظات الشاقة والطويلة بإجابات سريعة، فإنها تساعدنا في جمع بعض البيانات عن مواقف واستجابات لا يمكن أن تلاحظ بطريقة مباشرة، اما لكونها حالات وقعت في الماضي أو مواقف محرجة، مثل ما يتضمنه السؤال التالي" :هل رأيت في منامك وفاة أبيك؟ "أو" هل تنظر تحت الفراش قبل أن تنام؟ ."وكذلك الأمر في بعض الحالات التي يرغب فيها الباحث دراسة أنواع معينة من السلوك كالسلوك الجنسي أو بعض الأزمات والخلافات العائلية.

كما تمكن الاستمارة من معرفة استجابات الفرد في مواقف من الصعب ملاحظتها من طرف الباحث مثال ":هل تخاف من الظلام؟ "أو " هل تحب أن تلعب نفس اللعبة لمدة طويلة؟."

ثم ان الأسئلة تصبح ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها لمعرفة الاستجابات الانفعالية للمفحوص وكذا لمعرفة اهتماماته واتجاهاته وآرائه ...مثل" :هل تعتقد أن الناس لا يفهمونك؟– "
"هل تفضل أن تكون عالما أم مديرا لشركة؟."

على أن الملاحظة الذاتية والاعتماد على طريقة الاستمارة لا تحول دون بروز صعوبات كثيرة ترتبط بحسن نية المفحوص وصدق إجاباته وكذا التقلب في استجاباته والتغير في مواقفه وقيمه، و صعوبات لابد وأن يدخلها الملاحظ في الاعتبار.

4-صعوبات الملاحظة:

4-1-الإدراك الحسي:

ان الملاحظة أساسا عملية إدراك، إدراك حسي لسلوك أو حدث أو موقف أو اتصال...

ومعلوم أن الادراك يخطئ، كما أن له حدوده وقوانينه .ان للأعضاء الحسية حدودا معينة . فحواس الانسان ليست أدوات يوثق بها للحصول على مقاييس دقيقة للمسافة وللسرعة أو الحجم أو الشدة الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى التقليل من القدرة على ملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة . "كذلك تؤدي نواحي النقص الخلقية، مثل عمى الألوان والصمم الجزئي، و الألعاب الوقتية التي ترجع إلى التعب أو العقاقير أو الحالة الانفعالية والتدهور التدريجي بسبب كبر السن أو المرض، إلى تحريف الملاحظات" كما أننا لا نلتقط من العدد الهائل من المنبهات والمثيرات الحسية سوى القليل منها، وذلك اما لكونها تفرض نفسها حسب شدتها أي حسب تأرجحها بين حد أدنى، ولابد من توفره لحدوث الإدراك، وبين حد أقصى يصعب معه التمييز ان هي تجاوزته ...أو ألننا ال نلتقط منها سوى ما يلائم نشاطنا واهتماماتنا الراهنة .إننا حينما ننظر إلى موضوع معين، ال يدرك كل واحد منا نفس الأمر، بل ان نفس الشخص قد يختلف إدراكه باختلاف الأوقات .فمثال إذا نظر إلى رسم تخطيطي لمكعب، فإنه قد يراه في لحظة على أنه صندوق مفتوح، وفي وقت آخر قد يراه مجرد مكعب أو يدركه في تاريخ الحق على أنه غطا مربع من السلك . ذلك أننا نعمل على عزل المثيرات الحسية والاختيار بينها بناء على عوامل ذاتية، أو نعمد إلى تأويلها بناء على مشاغلنا وتوقعاتنا.

وكثيرا ما يكون الفكر نفسه مصدر الخطأ في عملية الملاحظة، إذ أنه يملأ وبدون وعي، الثغرات وفقا للخبرات والمعارف السابقة .وفي ذلك يقول جوته" :اننا ال نرى إلا ما نعرفه."

فقد يلاحظ الفرد من الظواهر سوى ما يتصل باهتماماته، وما قد يتفق مع اتجاهاته وأغراضه" .إن المعاني توجد في عقول الناس أكثر منها في الموضوعات نفسها ."فإذا قام مدرس وطبيب ومهندس معماري بمعاينة مبنى احدى المدارس، فإن كال منهم سوف يرى الأشياء التي تقع في بؤرة اهتمامه، بينما يغفل انتباهه عن الأشياء الأخرى .فالمدرس سوف يلاحظ المجالات والمواقف في بعديها التربوي والتعليمي، بينما يلاحظ الطبيب الشروط الصحية للمبنى، أما المهندس فإنه قد يهتم بالبناء وهندسته.

ويضرب لنا فان دالين على ذلك المثال التالي :في إحدى الأمسيات فشل كل عضو من أسرة تحت التجربة في أن يصل إلى إدراك سليم للوقائع ، في رأيه انه رأى شخصا ما يسير على مسافة منه، واستنتج من حركاته الرشيقة وأبعاد جسمه المألوفة أن هذا الشخص هو الآنسة ريتشارد، معلمة الرقص، التي كان يقابلها عادة في مثل ذلك الوقت من اليوم وحينما اقترب، اكتشف أن هذه المرأة ليست إلا شخصا غريبا في نفس حجمها .وبينما كانت ابنته حين تقرأ قصة مثيرة عن جريمة قتل، إذا بها تسمع صوتا خارج المنزل، واستنتجت أن شخصا متطفلا يريد اقتحام المنزل، إلا أن ذلك الشخص لم يكن في الواقع إلا أمها التي عادت إلى المنزل في وقت لا يتوقع أحد فيه عودتها .أما الزوجة فقد دخلت إلى المنزل وهي تزعم أنها لاحظت رجل يستثير الشفقة، رث الثياب يسير في الشارع، ويحتاج بشكل واضح إلى مساعدة مالية، فقامت بفتح النافذة ثم انفجرت ضاحكة، إن ذلك الشخص لم يكن إلا سيد معروف ، وهو شخص غني بخيل.

من هذا يتضح بوضوح أن الإدراك عرضة للتحريف والتشويه، نتيجة الانفعالات الملاحظ، ودوافعه، ومزاجه وحالته النفسية .كما يمكننا بصدد هذه الصعوبات أن نسوق المثال التالي :قام روشان سنة 1950، بدراسة إمكانية الملاحظة الدقيقة في بعض المواقف المحددة، وكان الموقف الذي اختاره ليكون موضوع الملاحظة يتلخص في قيام عدد من المفحوصين بأداء اختبارين يدويين أما أنظار باحثين اثنين .ووضع روشان اللائحة بجميع الاستجابات الممكنة والمحتملة أمام ذلك الموقف أي وقت انجاز الاختباريين .وتضمنت تلك اللائحة 24 خاصية، وكان على الملاحظين تسجيل ظهورها بالتتابع .وعند مقارنة تقارير الملاحظين وجد اختلافا في 6 خصائص من أصل 24 خاصية .وانتهى روشان إلى أن سبب الاختلاف راجع إلى كون أحد الملاحظين الاثنين أهمل عددا كبيرا من الاستجابات اللفظية للمفحوصين، وبعبارة أخرى لقد قام ذلك الملاحظ بعزل وتمييز الاستجابات، وركز انتباهه على الاستجابات الحركية وأهمل الاستجابات اللفظية للمفحوصين أثناء أدائهم.

كما يحدث أن يخلط العقل بين الفكرة والواقعة، بحيث لا تبدو الوقائع كما هي بل يحولها العقل إلى أفكار مجردة وقد تفقد هذه الأفكار ارتباطها بأصولها، وقد لا يكون لها أصول واقعية انما تكون من خلق خياله وتركيب ذاكرته.

ومن الضروري بناء على ما تقدم أن يتدرب الباحث على القيام بالملاحظة لتجنب احتمال الوقوع في أخطاء الإدراك وحتى يستطيع الحصول على بيانات علمية بالمعنى الدقيق، وينبغي عليه، منذ البداية تحديد ما يلي:

- الوقائع التي يجب ملاحظتها.
- كيفية تسجيل الملاحظة.
- الإجراءات الضرورية للتأكد من دقة الملاحظة.
- نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الملاحظ والملاحظ وكيفية تكوين هذه العلاقة.

وليس من شك في أن التحديد الدقيق لهذه النقاط يختلف باختلاف أغراض الملاحظة وأنواع البحوث.

ولتغطية النقص التكويني المتمثل في كون الحواس لا تجعلنا ندرك إلا عددا محدودا من المثيرات ونغفل ما يمر منها بإيقاع سريع، يلجأ العلماء إلى أدوات وأجهزة تكمل عمل أعضاء الحس وتزيد في قدرتها مثل الصور، الاقلام، آلات التسجيل كالفيديو ...وغير ذلك والتي تقدم اليوم الأداة الفعالة لتثبيت الحركات وبالتالي لتركيز الملاحظة .ان بإمكان تلك الوسائل إعادة السلوك موضوع الملاحظة وبإمكانها تثبيته أو ابطاؤه الأمر الذي يمكن الملاحظ من إدراك دقيق للحظاته المختلفة في تعاقبها

وتكون الصعوبة عكسية في أحيان كثيرة، بحيث لا تكمن في سرعة السلوك وقصر المدة التي يستغرقها واستحالة ادراكه في جزئياته المتلاحقة، بل في بطئه، فتكمن المشكلة في طول مدة الظاهرة أو السلوك موضوع الملاحظة .وقد تغلب علماء النبات مثالا على هذه الصعوبة بالاستعانة بالسينما وبتقنيات تسجيل الصور واحدة تلو الأخرى، كما أن تقنيات الإسراع في الشريط تسمح بتركيب الظواهر البطيئة مثل ظواهر النمو .وقد استخدمت هذ التقنية في علم النفس، فأمكن بواسطتها مثالا دراسة شدة التوتر عند فرد أو مجموعة وذلك بالتقاط صور في فترات معينة، وتركيبها من جديد في شريط واحد يعمل على تقريب الصور وبالتالي اختصار السلوك الذي قد يحدث في مدة طويلة على فترة قصيرة.

والحقيقة أن هذه التقنية السينمائية ليست سوى تطبيقا لما يسمى" بالعينة الزمنية "أي عندما يكون الملاحظ في وضع يستحيل عليه التقاط كل لحظات السلوك فيكتفي بتسجيل بعضها في فترات متباعدة نسبيا ويعمل بعد ذلك على تجميعها بتقطيع الشريط وتركيبه.

2-4-حضور الملاحظ:

لا شك أن وجود الملاحظ في موقف المفحوص يضيف متغيرا جديدا، الأمر الذي يؤثر بالضرورة في سلوك المفحوص، ويصدق هذا حتى في مجال الميكرو فيزياء (الفيزياء النووية) بحيث تضيف الملاحظة مصدرا من مصادر التحديد .فبالأحرى بالنسبة للظواهر الإنسانية وعندما يدرك المفحوص الملاحظ كملاحظ .ان مجرد وجود الملاحظ في المجال يؤدي بالمفحوص إلى تعديل سلوكه، فيتحتم على الدارس في هذه الحالة محاولة الانغماس في الحياة الطبيعية للمفحوصين (الملاحظة بالمشاركة .) فقد يتخذ الملاحظ عند دراسته مثلا لمختلف التفاعلات داخل المدارس وضعا يسمح له بالانخراط مع المدرسين والتلاميذ دون إثارة شكوكهم، ودون أن يحملهم على تغيير أنماط سلوكهم التي اعتدوها

وقد يلجأ الملاحظ إلى وضع يمكنه من الملاحظة دون علم المفحوص، وقد وضع علماء النفس والمربون لذلك حجرات" ذات رؤيا في اتجاه واحد "كما استفادوا من وسائل أخرى لملاحظة الأصوات أو التسجيل والتي من شأنها أن تقلل من مضايقة المفحوص .وكثيرا ما استعمل" جزيل "تلك الوسائل لملاحظة الأطفال في نشاطهم الطبيعي أو ألعابهم التلقائية. على أن تلك التقنيات لا يمكن اعتمادها دائما، وكثيرا ما يكون الملاحظ مضطرا للتواجد مع المفحوص، وفي هذه الحالة عليه أن يدخل هذا المتغير (أي حضوره في الموقف) في الاعتبار، على أن ما قد يكتسيه تصرفه من مرونة واندماج في الموقف، قد يضعف من أثر تواجده مع المفحوص فيتمكن هذا من الاستجابة بثقة وتلقائية.

محاضرة رقم	02	**المدة**	ساعة ونصف
عنوان المحاضرة	تسجيل الملاحظة		
الوسائل المستخدمة	حاسوب + العارض الضوئي		

1-تسجيل الملاحظة:

يحبذ أغلب المشتغلين بمناهج البحث أن يعمد الملاحظ إلى تسجيل ملاحظاته في نفس الوقت وقيامه بالمشاهدة، وذلك حتى تقل احتمالات التحيز ويضمن عدم نسيانه لتفاصيل المشاهدة ان هو أغفل توثيقها لحظة حدوثها .فبعض الأمور تضيع من الذاكرة بفعل النسيان، وبعضها الآخر قد تحرفه الذاكرة عن عمد أو عن غير عمد .وقد يعتقد البعض أن الأمور الهامةلا تضيع أبدا من الذاكرة وهذا اعتقاد خاطئ، فكم من أمور يشاهدها الإنسان أو يسمع عنها وتكون لها أهمية كبيرة في حينها ثم تضيع بعد ذلك في غياهب النسيان.

على أن الملاحظة لا يمكن أن تسجل بكيفية مضبوطة سوى السلوك الخارجي والشاخص الذي يظهر على شكل حركات أو كلمات ...اننا لا نلاحظ مثال الخوف كحالة نفسية داخلية بل تجلياته، ولا نلاحظ الذكاء بل كيفية حل المشاكل ومواجهة الصعاب، ولا نلاحظ" الرغبة في الاجتماع "ولكن نلاحظ عدد المرات التي يتجه فيها شخص ما نحو أشخاص آخرين ويخاطبهم في مواقف محددة.

وحتى يكون تسجيل الملاحظة غنيا ومفيدا لتقدم البحث، عليه أن يكون تحليليا أي أن يحلل الموقف أو العملية أو السلوك إلى العناصر والمكونات الأساسية .وعلى الملاحظ أن يستبعد من تسجيله التعميمات السابقة لألوانها، الأمر الذي يمكنه من أكبر قدر من الموضوعية والتي تعني أساسا إمكانية قيام عدد من الملاحظين بملاحظة نفس الخصائص .وفي قدرتهم على الاتفاق على حد أدنى من النقاط .ان اغفال هذا الشرط يعني فقدان الملاحظة لقيمتها العلمية فلن نلتقط سوى الانطباعات الذاتية للفرد.

كما أن حصول الاتفاق بين الملاحظين وبالتالي تحقق قدر من الموضوعية رهين بوضوح المصطلحات المستعملة وأن تكون معرفة تعريفا اجرائيا، ووصفية ما أمكن وغير قابلة للتأويل.

ولكن كيف يتم التسجيل، ثم ماذا نسجل؟

رغم أن الجواب على هذا السؤال هو محور هذا الجزء من هذه الدراسة، فإننا سنحاول الإجابة ولكن بشكل عام، ولنا عودة إلى الموضوع عند استعراض شبكات ملاحظة القسم واجراءات تحليل التفاعلات مدرس ـ تلاميذ.